عوائد المتوحشين وعقائدهم

تختلف شعوب الارض بعضها عن بعض في المأكل والمشرب والمسكن والمعتقد حتى اذا أُريد وصف عادات شعب واحد ومعتقده لزم لذلك مجلد كبير . فليس الغرض من هذه المقالة ذكر كل عوائد الشعوب التي لم تزل حتى يومنا هذا تخبط في دجور البداوة والتوحش ولا وصف شعائرها الدينيَّة بل الاقتصار على ما يشفُّ عن احوال قواها العقلية والادبية . وسنعتمد في ذلك على ما نقله العلَّامة السر جون لُبك عن كتب السيَّاح والباحثين في هذا الموضوع فنقول :

يظن فريق كبير من علماء هذا العصر ان البشر كلهم كانوا وقتًا ما في حالة البداوة والتوحش وان المتوحشين في هذا الزمان يشبهون اسلاف المتمدنين حتى ان مَن يقف على احوال المتوحشين في هذا العصر كمَن يقف على احوال الانسان قبل ان رقي ذروة التمدن ولذلك فمعرفة احوال المتوحشين الآن كمعرفة احوال اسلافنا الاقدمين . وقد يكون هذا القول صحيحًا بوجهٍ عام ولو لم يكن صحيحًا بوجهٍ خاص لانَّ بعض الشعوب المتوحشة كشعوب استراليا قد اعرقت في التوحُّش وابدعت فيهِ حتى يبعد عن الظن ان شعبًا من الشعوب القديمة جرى مجراها . هذا ناهيك عن ان فريقًا آخر من العلماء يظن ان العمران سابقٌ التوحُّش وان الشعوب المتوحشة هبطت من مصافّ الشعوب المتمدنة لا ان الشعوب المتمدنة ارتقت من مصاف الشعوب المتوحشة . وكيف كان الحال فالوقوف على عوائد المتوحشين وعقائدهم الآن لا يخلو من الفكاهة والفائدة كما سترى

مما يشترك فيهِ المتوحشون في كل الدنيا انهم اول ما يرون البيض يظنونهم اخيلةً او ارواحًا دلالةً على شيوع الاعتقاد بالارواح بينهم . ولما رأى اهالي استراليا الثيران اول مرة مع البيض ظنها بعضهم ارواحًا وظنها البعض الآخر نساء البيض لانهم رأوهم يحمّلونها الاحمال وحمل الاحمال منوط عندهم بالنساء

ويشترك اهالي استراليا واهالي زيلندا الجديدة وقبائل البابوان والاسكيمو في انهم لا يعرفون النخيل وهو شائع عند كل الشعوب المتمدنة الحديثة والقديمة . واهالي بولينيزيا وملقًا يجلسون حينما يكلمون رجلاً عظيمًا اعتبارًا له . والاسكيمو يشدُّ بعضهم

بانوف بعض عند التحيّة . والثابوت من الهدايا النفيسة عند الصينيين ولا سيما اذا كان المهدَى اليهِ مريضًا . والوسا في غربي افريقية يتهادون بفرشاة الاسنان وهي عندهم كناية عن ان المُهدِي يفتكر بالمهدَى اليهِ في الصباح والظهر والمساء كما يفتكر بتنظيف اسنانهِ

والطب وهو شائع في الدنيا كلها اسالبهُ عند المتوحشين من اغرب الاساليب ومدارهُ غالبًا على السحر والتعزيم . وكثيرًا ما يشرب الطبيب الدواء لكي يشفي العليل . والصينيون يدفعون الاجرة للطبيب ما داموا اصحاء ويقطعونها عنهُ اذا مرضوا وفي عادة غريبة جدًّا ولكنها لا تخلو من النفع . وعند كثيرين اذا ولدت امرأة فزوجها ينام في الفراش كأنهُ هو النفساء ويتدثّر جيدًا ويمتنع عن بعض المآكل . وهذه العادة الغريبة شائعة عند قبائل الانيون في اميركا الجنوبية وفي كشتكا وبعض جهات الصين وبورنيو وشمالي اسبانيا وكورسكا وجنوبي فرنسا

وعلاقات القرابة والنسب تختلف بين المتوحشين عنها بين المتمدّنين فكثيرًا ما يكون الانتساب الى الام لا الى الاب ويُحسَب الولد من قبيلة امهِ لا من قبيلة ابيهِ ولا يرث الرجلَ اولادهُ بل اولاد اختهِ واما اولادهُ فيرثون اخوالهم . وظاهر الامر ان هذا رفعة في شأن المرأة والحقيقة ان المرأة محتقرة عند كل الشعوب المتوحشة وتُعَدُّ غالبًا من جملة امتعة الرجل . ورسوم الزواج الشائعة في الدنيا كلها لا تخلو مما يشير الى ان الرجل يخطف المرأة خطفًا او يأخذها بالقوّة . ولم تزل العوائد الندوة متبعة الى الآن عند بعض الشعوب فاهالي جزائر فيليبين يرسلون الفتاة الى الآجام قبل شروق الشمس وبعد ساعة من الزمان يسمحون للفتى الذي يريد الاقتران بها ان يتبعها فاذا وجدها وأتى بها قبل غروب الشمس صارت لهُ زوجةً والاَّ فلا . والقلموق في اواسط اسيا يركبون الفتاة على فرس ويطلقون لهُ العنان ثم يركب الفتى فرسًا آخر ويتبعها فاذا ادركها اتخذها زوجةً والاَّ فلا

واكثر الشعوب المتوحشة لا تعرف شيئًا من امر القراءة والكتابة ولا تدرك كيف ان العلامات المكتوبة تعبّر عن كلام الكاتب . قيل ان احد المرسلين ارسل ارغفة من الخبز الى مرسَلٍ آخر مع رجل من المتوحشين وبعث معهُ ورقةً ذكر فيها عدد الارغفة فأكل الرجل بعضها في الطريق ولمّا وبخهُ المُرسَل اليهِ على ذلك ظنّ ان الورقة رأتهُ يأكل الخبز فاخبرت بما رأت فكان منهُ انهُ أرسل مرّةً أخرى ومعهُ ارغفة خبز وأرسلتْ

معهُ ورقة فيها عدد الارغفة فخبّأها تحت حجر ريثما اكل بعض الارغفة ظنًّا منهُ انها لا تراهُ فلا تخبر عنهُ . ورأى بعض هنود اميركا رجلاً يقرأ صحيفة من صحف الاخبار فظنوهُ يداري عينيهِ بها فاشتروا صحيفةً مثلها لمداواة عيونهم . وفتح بعضهم كتابًا امام هنود كندا واخبرهم بعدد الصفحات من اول الكتاب الى هناك فلم يمكنهم ان يعلّلوا ذلك الاَّ بان الكتاب حيٌّ فيخبرهُ بعدد صفحاتهِ

ويغلب على المتوحشين الامتناع عن تصوير صوَرهم . وكلما اشبهتْ الصورة المصوَّر ظنوا انها اخذت جانبًا من حياتهِ . ورأى احد السياح هنود اميركا يتبعونهُ فلم يجد واسطة لابعادهم عنهُ الاَّ ان يهددهم بتصويرهم فهربوا من وجههِ حالاً . وصوَّر بعضهم رئيسًا من رؤساء الهنود عن جنب فاظهر في الصورة خدًّا واحدًا من خديهِ فعبَّرهُ رئيس آخر قائلاً ان المصوَّر قد عدَّك نصف رجل والاَّ ما صوَّرك بخد واحد فآل الامر الى الحرب بين الرئيس والمصوَّر فقُتِل الرئيس وهرب المصور فاقتصَّ قوم المقتول من الرئيس الآخر وقتلوهُ هو واخاهُ في رئيسهم

وقد يظن في بادئ الرأي ان المتوحشين احرار غير مقيدين بشيء من الرسوم والعادات التي يتزين منها المتمدنون . ولكن من ينعم نظرهُ يجد ان المتوحشين مقيَّدون برسوم وعادات لا اثقل منها . وضعيفهم عبد لقويهم وصعلوكهم لغنيهم وصغيرهم لكبيرهم وكلهم عبيد لعاداتهم ومعتقداتهم على غرابتها . فمغول سيبيريا مثلاً يحترمون مسّ النار بالسكين وتشقيق الحطب بجانب النار والاتكاء على السوط وسكب السوائل على الارض وضرب الفرس باللجام وكسر عظم بآخر وقس على ذلك امورًا كثيرة يحترمها غيرهم ويقتصُّون ممن يرتكبها

ومن الاعتقادات الشائعة عند المتوحشين ان لا حركة بدون حياة ولذلك فالحياة لا تختص بالحيوان والنبات بل توجد ايضًا في الانهار والبحيرات والرياح وفي كل متحرك بل قد يعتقدون بوجودها في كل موجود . ولعلَّ ذلك سبب عبادة الجمادات . يحكى ان طائفة من هنود اميركا توَّلهُ بحيرةً من البحيرات التي فيها وتعتقد انها تغرِّق كل من يتكلم وهو فوق ظهرها . وفي احد الايام كانت امرأةٌ من نساء المبشرين تقطع هذه البحيرة في قارب رجل من الهنود فلما بلغت منتصفها جعلت تتكلم بصوت جهير لكي تقنع الهندي بفساد معتقدهِ فخاف خوفًا عظيمًا ولما بلغ بها الشاطئ سالمًا جعلت تهزأ بمعتقدهِ فقال لها ان الروح العظيم رحيم لا يؤاخذ نساء البيض لانهُ يعلم

انهنّ لا يستطعنَ الصمت

والصابئيّة اي عبادة الاجرام السموية غير منتشرة بين الشعوب المتوحشة كما يُنتظَر ولعلّ سبب ذلك انتظام حركات الاجرام السموية . قال احد اهالي بيرو وقد سُئل عن سبب عدم تأليههِ الشمس انها لو كانت الهًا لغيّرت سيرها او لوقفت ولرتاحت ولو قليلاً وكأنّهُ قال ان سيرها في خطّة واحدة دائمًا يدل على انها محكومة لا حاكمة . والمجوسيّة اي عبادة النار اكثر شيوعًا والغالب اتقان العذارى على ايقاد النار المقدسة . ولعل اضطرار الناس للنار وصعوبة ايرائها قادهم الى اكرامها ثم الى عبادتها

والاعتقاد بالخلود شائع من احد وجوهو عند المتوحشين والغالب بينهم انهُ اذا مات رجل قتلوا نساءهُ وعبيدهُ ودفنوهم معهُ لكي تمضي ارواحهم مع روحهِ الى عالم الارواح . ولا يكتفون بقتل النساء والعبيد بل يدفنون اسلحة الميت معهُ لكي تذهب ارواحها مع روحهِ الى عالم الارواح . وكان اليونانيون يضعون قطعةً من النقود في فم الميت اجرةً لمن يعبر بهِ برزخ الاموات . والصينيون يحرقون للميت نقودًا من الورق لكي تصل الى روحهِ

وللاحلام شأنٌ عظيم عند المتوحشين وكثيرون منهم يعتقدون ان النفس تفارق الجسد وقت النوم كما ذكرنا ذلك في المقالة الاولى من هذا الجزء . ومنذ مدة وجيزة ايقظ احد حكام الانكليز رجلاً من اهالي بُرما وكان مغمًى في الظهيرة فاغتاظ اهالي بُرما من ذلك وقالوا ان هذا الرجل ينام من الظهر الى الساعة الثانية وفي هاتين الساعتين تذهب نفسهُ الى اماكن مختلفة والارجح انها لا ترجع قبل انتباهها . فايقاظ الحاكم لهُ في الساعة الاولى اعتداء على حياتهِ . واكثر المتوحشين يحسبون الموت من قبيل النوم ويعتقدون ان الموتى يُبعثون كما ان النيام يستيقظون . وكان الرومان يقرنون بين الموت والنوم ويقولون ان مارس (المريخ) اله الموت وسوسُس اله النوم اخوان ولدتهما نكوس الهة الليل على ما جاء في خرافاتهم

وعلاقة الاحياء بالاموات والاموات بالاحياء مرعيّة عند اكثر المتوحشين . ومنذ مدة خدع بعضهم رجلاً هنديًا وخسّرهُ اربعين ربيّةً فاتى الهندي الى امهِ واخبرها بذلك وطلب منها ان تعذّب ذلك الرجل بعد موتها فرضيت ان يقتلها في الحال لكي تذهب نفسها وتعذّبهُ فقتلها . وبعض المتوحشين يعتقد بخلود الرؤساء فقط لا بخلود عامة الشعب وبعضهم يعتقد بخلود الرجال دون النساء وبعضهم بخلود

الانسان ما دام ابنهُ حيًّا فاذا مات ابنهُ تلاشى هو وقام ابنهُ مقامهُ. واهالي زيلاندا الجديدة يمتنعون عن قتل اعدائهم بسبب اعتقادهم بالخلود فانهم يقولون ان روح القتيل تمضي الى عالم الارواح وتستعد لمقابلة روح القاتل وتستعين بغيرها من الارواح حتى اذا مات القاتل وانت روحهُ الى عالم الارواح قامت عليها روح القتيل وغلبتها. وعندهم انهم لا يخلون من شرّ القتيل الاَّ اذا اكلوهُ فانهم يسلبونهُ قوتهُ بهذه الواسطة

واهالي جزائر فجي يعتقدون ان الطريق الى عالم الارواح طويل محفوف بالمخاطر والمكاره قلَّ من يقطعهُ ويبلغ آخرهُ سالمًا. والاكثرون يهلكون ويتلاشون في اثنائهِ ولذلك تراهم يحتالون دون المنية ويقتلون انفسهم قبلما تضعفهم الشيخوخة اكي يقووا على تجشُّم مشاق السفر الى عالم الارواح. ذكر احد الكتاب ان شابًّا من النيجيين دعاهُ لجنازة ابيهِ فمضى ورأى جمهورًا ماشيًا فمشى معهُ ولما لم يرَ تابوتًا ولا شبثًا يدل على الميت سأل الشاب عن ابيهِ فدلَّهُ عليها واذا بها ماشية مع الجمهور وعلى وجهها امارات السرور كأنها ذاهبة الى عرس او وليمة. فلما وصلوا الى القبر ودَّعت اولادهـــا واصدقاءها ثم خنقوها ودفنوها وهي راضية بذلك مسرورة بهِ. وهذه العادة شائعة عندهم حتى لا يرى بينهم عجوز

ويشترك الموحشون في خوفهم الشديد من السحر والارواح الشريرة واكثرهم في قلق دائم من هذا القبيل فيتألمون من توقُّع البلايا كما يتألمون من تحمُّلها ويخافون من اشياء كثيرة عارية عن كل ما يُخاف منهُ وديانتهم حمل ثقيل على عواتقهم ولكنها مع اثقالها بالاوهام والخرافات تحث اصحابها على اتباع الحق وعمل الواجب بحسب ما ترشدهم عقولهم

طريقة لملافاة الشراب

لا يخفى ان الشراب المستحضر من الاثمار النضرة يفضل على غيرهِ من سائر انواع الشراب ولكنَّ مستحضريهِ يغلطون غالبًا باضافة السكر الى العصير عند ما يكون باردًا فيحصل معهم اذ ذاك سائل كثيف يمنع الحامض الكربونيك من الفرار وتظهر الرغوة والزبدة على وجه الشراب فلافاةً لذلك يجب ان يضاف السكر الى العصير عندما يكون حاميًا